واليساريون الغربيون منهمكون في تسطير المقالات النظرية لمعرفة ما اذا كانت الصهيونية متكافئة مع الاشتراكية ام لا . وكان هذا المنهج التبريري المصدر الايديولوجي الحاسم الذي كان يغذي شوفينية زعماء الصهيونية تحت ستار الزعم بأنهم اشتراكيون ومكنهم من احكام قبضتهم على الجماهير اليهودية في فلسطين ، ومن توجيه هذه الجماهير لتنفيذ المهمة الصهيونية باستبعاد الجماهير العربية الفلسطينية وطردها عن البلاد . وعلى نفس المنوال ، ولكن على نطاق أقل حسما ، ساهم هذا المنهج في استبقاء نوع من الثقة بزعماء الطبقات البورجوازية العربية التقليدية وبتظاهرهم بمناهضة الصهيونية في الوقت الذي كانوا يتواطأون مع حلفائها الامبرياليين ، عن طريق التأكيد ، من خلال تمسك بريء مزعوم لهم بالتقاليد والديانة ، بأن الصهيونية والشيوعية اسمان لمسمى واحد . وما غفلت الجماهير الفلسطينية عن ادراكه آنذاك هو ان الصهيونية نمت وترعرعت كأداة لمناهضة الاشتراكية والشيوعية .

* * *

كان للايديولوجية الصهيونية كما تبلورت عن ظروف الصراع المجتمعي في أوروبه الاثر الاساسي في تحديد هوية المؤسسات التي نفذت عملية التوطين الصهيونية في فلسطين . ولا يسعنا المضي في معالجة الاصول المجتمعية للايديولوجية الصهيونية دون التطرق ، ولو بشكل مقتضب وأولي ، الى الطريقة التي ترجمت هذه الايديولوجية نفسها في الممارسات العملية لتحقيق وتوطيد الكيان الصهيوني في البلاد . وسيتضح من خلال عرضنا الوجيز لهذه المسألة ان الاتجاهات المختلفة في الصهيونية عملت هنا أيضا بشكل متكامل من أجل تحقيق الهدف الواحد . وكنا قد أظهرنا الدور الذي وضعت من أجله تعليلات اليسار الصهيوني بالعبارات الماركسية لصرف اليهود عن الكفاح الثوري في الغرب . وكذلك كان الامر في فلسطين حيث استخدمت الشعارات الاشتراكية لليسار الصهيوني لتبرير اقامة مؤسسات ذات مظاهر شبه اشتراكية تقوم بالدور الشوفيني الذي استطلبه المخطط الصهيوني بما في ذلك عزل الطبقة العاملة العربية في المجالات الاقتصادية في البلاد . ولتوضيح هذا الدور الفريد الذي نفذ تحت غطاء الشعارات اليسارية لا بد من العودة الى بوروشوف .

ان بعض المحللين الذين عالجوا كتابات بوروشوف بشكل عام قد ربطوا ايديولوجيته بالسعي لتحويل اليهود من وضعهم في الطبقات الوسطى في أوروبه الى « شعب منتج » يعمل في قطاعات الانتاج الاولية في فلسطين . وربما كان هذا بالفعل أحد أوجه تفكير بوروشوف الا انه لم يشكل الوجه الاهم لمنطلقه الايديولوجي كما انه لم ينتم اليه بشكل خاص . فالانطباعات القائلة ان اليهود « شعب طفيلي » يتطلب بعثه المجتمعي العودة الى الاسس الزراعية والصناعية لعملية الانتاج كانت شائعة منذ امد بعيد في أوروبه بين اليهود وغير اليهود على حد سواء . واصبحت هذه الفكرة من الاوجه الرئيسية للايديولوجية الصهيونية . والواقع ان المتمولين من كبار البورجوازيين اليهود ، وليس اليسار الصهيوني بأي شكل خاص ، هم من بعثوا هذا العنصر من الايديولوجية الصهيونية حين غسروا مشاريعهم « الخيرية » لتوطين اليهود في مستعمرات زراعية خارج أوروبه على انها وسيلة لاثبات قدرة العمل في الانتاج عند اليهود . وحين تقدم هرتزل بمخططه المليء بالوعود للجميع في اجتماع له مع البارون دي هيرش ، جاء جواب البارون كما يلي : « لا اريد رفع المستوى العام البتة . فجميع مشكلاتنا تأتي نتيجة رغبة اليهود في التسلق الى المراكز العالية أكثر مما يجب . فلدينا مفكرون أكثر مما يجب ... اما عن خططي في الارجنتين ... فبعد بضع سنوات جيدة سيمكنني ان اظهر للعالم ان اليهود ايضا يمكنهم ان يصبحوا مزارعين جيدين . »

ولهرتزل الذي سجل هذا الحديث في مذكراته ليوم ٢ حزيران (يونيو) ١٨٩٥ بدا هذا